درس للمرسلين

للمرسلين الاميركيين والانكليز غرض اولي وهو الدعوة الى المذهب البروتستاني وهم يتوصلون الى ذلك بالتعليم والتطبيب والتبشير لكنهم لا يجرون على نسق واحد لان انتظامهم في سلك واحد لا يقيد حريتهم الشخصية ولا يلزمهم باتباع اسلوب واحد للوصول الى الغرض الذي أرسلوا لاجله . فرجل مثل الدكتور ڤانديك كان اسلوبهُ ان يفيد الناس بتطبيبهم وتعليمهم وتهذيبهم فاستعدَّ لذلك اولاً بتعلُّم اللغة العربية وحفظ امثالها ومصطلحاتها حتى صار مثل ابرع ابنائها فيها . ثم ألَّف الكتب الكثيرة وعلَّم السنين العديدة وكان الذين يعاشرونهُ ويسمعون وعظهُ يشعرون انهُ رجل كبير النفس رحب الصدر يرشد الى الصلاح والتقوى من غير نظر الى ما بين المذاهب والطوائف من الفروق الدينية ولذلك اكرمهُ اليهود والمسيحيون والمسلمون على حدٍّ سوى في حياتهِ وفي مماتهِ واعتقدوا فيهِ الصلاح والفضل . ورجل مثل سمعان كلهون كان اسلوبهُ افادة الناس بتعليمهم وتهذيبهم فعاشرهُ الدروز والمسيحيون على اختلاف طوائفهم واعترفوا لهُ كلهم بالفضل والتقوى . ولقد كان في الكثير من مواعظهِ وتعاليمهِ لاهوتياً متمسكاً بمذهب مخصوص يعتقد صحتهُ و يدافع عنهُ ولكننا لم نسمع منهُ ما يحط من كرامة المذاهب الاخرى . وقس على هذين الفاضلين كثيرين من المرسلين وجبذا لو كانوا كلهم كذلك

وقد انتدبت مدرسة هرتفورد اللاهوتية الاستاذ مكدونلد استاذ اللغات السامية فيها لالقاء خطب ترشد متعلمي اللاهوت الى كيفية سلوكهم في البلاد الاسلامية التي يرسلون اليها فاتى مصر وسورية منذ ثلاث سنوات وتعرَّف بكثيرين من علماء المسلمين ثم عاد الى بلادهِ والقى عشر خطب في تلك المدرسة شرح فيها حال الاسلام والمسلمين كما ظهرت لهُ ووجَّه انظار سامعيهِ الى ما بين الدين الاسلامي والدين المسيحي من الاتفاق التام . وهو من العارفين بالعربية المتضلعين من علم الكلام ولهُ فيهِ وفي الفقه كتابان مشهوران باللغة الانكليزية

وقد ذكر في هذه الخطب ما يحسب انهُ يجب على المبشر ان يعلمهُ و يعمل بهِ لكي يستطيع ان يفيد في البلاد الشرقية فينظر اليهِ اهلها نظر الصداقة والاكرام . واوضح ذلك بامثلة مما فعلهُ هو وما جرى لهُ قال ما خلاصتهُ « اني اتصلت بالدراويش مراراً كثيرة فلقيت منهم

كل اكرام ووجدت فيهم غيرة دينية حقيقية وكانوا يكلوني في بعض المواضيع الدينية باخلاص تام وصدر رحب . نعم انهم كانوا ينظرون اليَّ كاحد السيَّاح المتقطعين للدرس والبحث لا كاحد المبشرين ولكنني اعتقد انهم يفعلون مثل ذلك ايضاً مع المبشرين لو عرف المبشرون كيف يعاشرونهم بالحسنى

« قبلما ذهبت الى البلدان الشرقية عرفت كثيراً من احوالها وقرأتُ كثيراً عن ائمة المسلمين قرأت كتبهم ودرست سيرهم فصار تكشيرين منهم مقام رفيع في نفسي فلما دخلت بلادهم كان اول شيء اتجه اليهِ فكري زيارة مدافن اولئك الائمة الذين عرفتهم من كتبهم فاقمت هذه الزيارات بالاحترام الواجب اي انني زرت مدافنهم زيارة دينية حقيقية بالوقار والاحترام لانهم من اولياء الله فساعدني ذلك على التقرُّب من الذين يعتقدون فيهم الولاية

« والعادة المتبعة في مثل هذه الزيارات ان يمسك الزائر بالقبر ويتلو الفاتحة وهي بمثابة الصلاة الربانية عند المسيحيين . ولا ادري ما يقول علماء اللاهوت في فعلي هذا اما انا فاعترف لكم جهراً انني لم اجد في نفسي اقل مانع يمنعني من تلاوة الفاتحة عند قبور اولئك الاولياء . ولا ادري هل كان الوليُّ المدفون يستفيد من تلاوتي الفاتحة على قبره او كان الواقفون معي يستفيدون ولكني ادري واعلم انني انا نفسي كنت استفيد من شعوري بالقرابة الروحية بين كل الذين يدعُون باسم الله . واعلم ايضاً ان كل المسلمين الذين سمعوني اتلو الفاتحة عند مدافن موتاهم او سمعوا عمَّا فعلتهُ شعروا ان بيني وبينهم قرابة روحية شعروا ان هذا الرجل المسيحي يحترم اولياءهم ويعرف معنى التقوى والحياة الروحية

« لما كنت في القاهرة ذهبت لزيارة مقام الشاعر المشهور عمر بن الفارض وامسكت بشباك قبره وتلوت الفاتحة ولحال سمعت الذين هناك يقولون انهُ يعلم ما يجب ان يفعلهُ من دلائل الاحترام لهذا المقام . وحدث لي مثل ذلك لما زرت مدفن الامام الشعراني فاني تلوت الفاتحة هناك وفي نفسي اشدُّ الاحترام لذلك الولي لشخصهِ ولصفاته . وكنت اشعر بهذا الاحترام كلما زرت مقام ولي من اولئك الاولياء . واني ارى ان كل مسيحي مهما كان متمسكاً بدينهِ يستطيع ان يفعل فعلي ويشعر انهُ زار قبور الناس من الصلاح . ويقيني انَّ فعلي هذا لم يحملهُ المسلمون الذين سمعوا بهِ الاَّ على الحب لهم ومن المحتمل ان بعضهم ظن اني اميل الى الاسلام واود اعتناقهُ وقد حدث شيء من ذلك في طبرية فاني دلوت مرةً من قبر من قبور اولئك الاولياء على غير علم مني لان القبر كان متهدماً ولم اعلم انهُ قبر ولي حتى سمعت واحداً يشهر دليلي لانهُ ادخلني مدفن ذلك الولي فقال لهُ الدليل « ان هذا الرجل يحبنا ولعل الله

يشرح صدرهُ للاسلام ». الاَّ ان ذلك نادر والغالب ان الذين كانوا يرونني كانوا يعلمون اني مسيحي متمسك بديني ولكنني أحترم دينهم ايضاً كما احترم ديني

« وقد يصعب على كل المرسلين ان يفعلوا فعلي ولكنهُ لا يصعب على المرسل الشهم المستقل بافكاره الرحب الصدر الكثير التسامح . نعم لا يصعب عليهِ ان يفعل فعلي ويبقى مبشراً بل يصير اقدر على التبشير لانهُ لا يخشى ان يبيِّ الناس الظن بهِ حينما يرون انهُ يفعل ما يفعل عن اخلاص وحسن نية »

وبعد ان مهَّد هذا التمهيد قال ان مَن يريد ان يعرف احوال المشارقة في بلادهم سواء كان عالماً او سائحاً او مبشراً فانهُ يجد سبيلاً لمعرفة ما يريد معرفتهُ كأنَّ الجميع تآمروا على ان يخبروهُ بما يخالف الواقع . وذكر امثلة مختلفة تؤيد كلامهُ من حيث اخفاء الحقائق وتضارب الاقوال وتقرير ما يخالف الواقع حتى كان يتعذَّر عليهِ ان يعرف حقيقة ما يبحث عنهُ . ثم قال ان الناس الذين كانوا يلفقون لهُ اقوالاً غير صحيحة لم يكونوا يقصدون ان يخدعوهُ ولكنهم كانوا قليلي الاكتراث لما يقولونهُ سواء طابق الواقع او لم يطابقهُ . فاذا سألتَ احدهم عن امر لا يعرفهُ لفَّق لك جواباً حسبما يخطر لهُ غير قاصد خداعك ولا غرضاً آخر من الاغراض الدنيئة وانما قصدهُ الظهور بالمعرفة . قال ولم اجد احداً سألتهُ عن شيء فقال لا اعلم الاَّ حماراً كنت اسألهُ عن اسم جامع او قبر فيطرق قليلاً يفكِّر فاذا كان لا يعرفهُ قال لا اعلم . ولو سألت احد التراجمة لفَّق لي اسماً ايَّاً كان . ونتيجة ذلك إما ان يصدق المبشرون كل ما يقال لهم صحيحاً كان او غير صحيح وإما ان يشكوا في كل شيء . فالذي يرى نفسهُ ميَّالاً الى تصديق كل ما يقال لهُ ولو لم يقم عليهِ اثنا عشر شاهداً نصيحتي لهُ ان لا يذهب الى الشرق وانصح بمثل ذلك لمن يعتقد ان الصدق معدوم من الناس . فعلى مَن يذهب الى الشرق ان يزن الامور بميزان العقل فيصدق المعقول منها ويرفض غير المعقول وان يدرس كل ما يستطيع درسهُ من علوم المسلمين قبل الذهاب الى بلادهم

ثم التفت الى امر آخر فقال ان اغرب ما يراهُ المرء في بلاد المشرق اعتداد المشارقة بانفسهم من حيث الدين واعتقادهم انهم هم وحدهم على هدًى وكل مَن سواهم على ضلال . وهم يسلِّمون بتفوُّق الاوربيين والاميركيين عليهم في العلوم والفنون ولكنهم لا يسلِّمون لهم بمثل ذلك في الدين والفلسفة . سألني احد علمائهم مرةً وكنت في بيتهِ الى اي غرض تتجه فلسفة اوربا الآن . والسؤال كبير صعب لاسيما وانهُ كان عليَّ ان اجيبهُ بالعربية وخفت ان استعمل كلمات اصطلاحية لا تؤدي المعنى المراد فقلت لهُ ان الفلسفة متجهة الآن الى التصوُّف

ثم استدرك على ذلك بقولي اني اريد بالتصوف المعنى الذي كان افلاطون يفهمهُ منهُ . فاشار اليَّ بالاستحسان وقال انهُ لم يخطر ببالهِ قط اننا بلغنا هذا المبلغ من الفلسفة

« وهناك امر ثالث لا بدَّ من اعتبارهِ وهو اعتقاد علماء المسلمين ان كل ما على الارض فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . ذهبت ذات يوم الى جامع ابن طولون ولعلهُ اقدم جوامع مصر الباقية الى الآن وهو من اقدم مساجد المسلمين في الدنيا وقد أُبطلت الصلاة فيهِ من عهد طويل فلا تجد فيهِ الآن من علامات الحياة الاَّ آثار اقدام الطيور في التراب الذي يغطي ارضهُ ولا تسمع الاَّ اصواتها وهي طائرة فوق رأسك . والجامع في وسط القاهرة ولا يزال شاهداً بعظمة الدين بنوهُ وقد رأيت على محرابهِ الذي اتجه اليهِ ملايين من المؤمنين بالصلاة الى الله ابياتاً كتبها رجل اسمهُ درويش مصطفى سنة ١٨٧٧ وهي قديمة رأيتها في كتاب الف ليلة وليلة وتدلُّ دلالة واضحة على كيف ينظر المشارقة الى هذا العالم وهذا نصها

اين الملوك ومن بالارض قد عمروا قد فارقوا ما بنوا فيها وما عمروا
واصبحوا وهم في قبر بالذي عملوا عادوا رميماً بهِ من بعد ما ذثروا
اين العساكر ماردَّت وما نفعت واين ما جمعوا فيها وما ادَّخروا
اتاهم امر ربِّ العرش في عجلٍ لم يجهم منهُ اموالٌ ولا وَزَرُ

« وهم يحسبون ان كل شيء ظلٌّ زائل وخيال باطل حتى لقد اعتقد بعضهم ان الله سيفني السماء وجهنم ويبقى وحدهُ مستوياً على عرشهِ كما كان قبل ان ابدع الكائنات . فعلى المرسلين ان يعلّموا ذلك في معاملتهم اهالي المشرق »

وغنيٌّ عن البيان ان المؤلف لم ينصف المشارقة في رميهم كلهم بقلة الاكتراث لما يقولونهُ و يقررونهُ فان بعضهم يفعل ذلك و بعضهم دأبهُ التحقيق والتجريح والتمحيص . ولكن اذا كان المطلوب تعليلاً لواقعة فشأن الذين لم يتخرَّجوا في العلوم المحضة منهم شأن امثالهم في سائر البلدان يوردون ما يخطر لهم من الاقوال والعلل من غير تدبُّر

وسائر فصول الكتاب مبنية على ما استنتجهُ المؤلف من مطالعتهِ في الكتاب والسنَّة وكتب السير والتفاسير وغرضهُ منهُ ايقاف المتخرجين في تلك المدرسة على ما يجب ان يعلموهُ قبل مجيئهم الى البلاد الشرقية . ولقد احسن جدًّا في نصحهِ لم ليعاملوا الجميع بالحب والاخلاص والاكرام وحبذا لو نصح لهم ايضاً ان يقتصروا على التعليم والتهذيب ويتركوا العقائد الدينية بتاتاً